

[ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۗ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّنَهَا (٢٨) وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)]

[أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِتَنْمِلَكُمْ (٣٣)]

[ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ ۗ بَنَاهَا (٢٧)]: هذا استفهام تقريرى، لاستشارة عقول المنكرين للبعث. [ءَأَنْتُمْ]

والجواب معروفٌ سلفاً، فقد قال الله ﷻ: [لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ]

{غافر: ٥٧}، فالله تعالى ينعى على هؤلاء المنكرين للبعث، والمستبعدين له بقولهم [مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ

رَمِيمٌ] {يس: ٧٨} بأن الذي خلق السموات السبع الشداد قادر على أن يعيد خلقهم، كما قال في الآية

الأخرى: [وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ] {الروم: ٢٧}، ففي هذا إقامة لحجة

عقلية، حسية، على هؤلاء المنكرين للبعث، وقال: [أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيْكَ أَنْ يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ] {يس: ٨١}. ثم إنه سبحانه وتعالى بين كيفية خلق السماء فقال: [بَنَاهَا]، على الصفة التي جاءت

الآيات بعدها مفسرة لها، ومعنى بناها: أي شيدها وأقامها .

[رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّنَهَا (٢٨)]: ومرجع الضمير إلى السماء، والمراد بالسمك: الارتفاع. وقيل إن السمك

المقصود به السقف، فما بين السماء والأرض مسافة هائلة طويلة. ومعنى سواها: أي جعلها معتدلة

الأرجاء، واسعة الفناء، لا فطور فيها، ولا تفاوت. والناظر في هذه السماء يسرح طرفه في أرجائها،

ويعجب من دقة خلقها، ومتانتها، لا يجد فيها أدنى ثقب، كما قال تعالى: [فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ

(٣) {الملك: ٣} يعني من شقوق وصدوع، [ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)]

{الملك: ٤}، فيكلُّ الطرف عن العثور على مقدار ثقب إبرة في هذه السماء المحكمة ذات الحبك . فيا لها

من آية عظيمة! ولهذا ندب الله المؤمنين إلى التفكير فيها، فقال تعالى: [أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ

(١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) {الغاشية: ١٨}، وهذا من طرائق القرآن في بناء العقيدة، وهو توجيه

العقول والأنظار إلى مظاهر الربوبية ؛ ليحصل توحيد الألوهية .

[وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩)]: مرجع الضمير إلى أقرب مذكور وهو السماء. ومعنى [وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا]:

أي جعل ليل السماء مظلماً. فمعنى أغطش أي أظلم. ومعنى [وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩)]: أي أظهر ضحاها بنور

الشمس، فالشمس إذا بدت في السماء بان الضحى، وأسفر المكان، وإذا احتجبت الشمس عن هذه

السماء عادت الظلماء. وهي دورة متكررة في اليوم واللييلة. كما قال تعالى: **[يُكْوَرُ** **أَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ**

**أَلْتَهَارَ عَلَى أَيْلٍ** ] {الزمر: ٥} ، وفي تعاقب الليل والنهار حكم بالغة، يطول المقام بذكرها، لا تقوم

حياة الأدميين والحيوان والنبات إلا بها، فلو اختل ذلك النظام لحصل اضطراب في الحياة البشرية؛

ولهذا قال الله ﷻ: **[قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ**

**أَفَلَا تَسْمَعُونَ** ﴿٧١﴾ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ**

**يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴿٧٢﴾ ] {القصص: ٧١-٧٢}، فحياة الإنسان، وحياة الحيوان،

وحياة النبات، تتأثر بتعاقب الليل والنهار كما هو معروف، وكما كشفت عنه العلوم الحديثة، بأوضح ما

يكون. ويحسن أن يكون لطالب العلم نوع اطلاع على العلوم الحديثة في الفلك، وفي الفيزياء، وفي علم

وظائف الأعضاء، وفي علم النبات، وفي مختلف العلوم الحديثة؛ لأنها تزيد المؤمن إيماناً، وإن كانت لا

تزيد الكافرين إلا ضلالاً، كما قال ربنا ﷻ: **[قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ**

**عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴿١٠١﴾ ] {يونس: ١٠١}، فالمؤمن، صاحب القلب المفتوح تزيده هذه المكتشفات، وهذه

الحقائق العلمية إيماناً بقدرة الله ﷻ، وكمال ربوبيته. وقد ألف بعض الملحددين الشيوعيين قبل نحو

خمسين سنة كتاباً سماه " الإنسان يقوم وحده "، يريد أن يقرر أن الإنسان مستغن بنفسه، وأنه ليس

بحاجة إلى إله، فألف أحد الغربيين كتاباً يرد به عليه بعنوان " الإنسان لا يقوم وحده ". وهذا المؤلف

رجل من النصرى، لكن عنده إيمان بالربوبية، واعتضد بالعلوم، والكشوف العلمية الحديثة، على بيان

حاجة الإنسان إلى الرب، وترجمه بعض المعرّبين باسم " العلم يدعو إلى الإيـمان ". وهو كتاب مفيد؛ لأنه

يوقف المؤمن، ويوقف طالب العلم، على حقائق مذهلة من خلق الله ﷻ، وحكمته، ودقيق صنعه،

وتدبيره في الأنفس، وفي الآفاق، مما يزيد المؤمن إيماناً.

**[وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾]** : معنى **[دَحَاهَا]** أي بسطها، وقيل: حرثها، وشقها. وها هنا إشكال

مشهور، وهو ما يتعلق بترتيب خلق السموات والأرض، فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة

فصلت: **[ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَاعِلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ**

**فِيهَا رُوسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ]** [فصلت: ٩-١٠] ثم قال: **[ثُمَّ**

اَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۗ [فصلت: ١١-١٢]، فهذا الترتيب يدل على أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، ثم خلق السماء، والذي بين أيدينا ها هنا، أن الله سبحانه وتعالى ابتداءً بذكر السماء فقال: [ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾]، فجعل ذكر الأرض بعد ذكر السماء، وهذا في ظاهره مخالف لما في سورة ( فصلت )! ولأجل هذا الإشكال سلك بعض المفسرين مسالك فيها نوع تكلف، فمنهم من قال إن معنى قوله: [وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ] أي قبل ذلك، ولا تخفى شدة التأويل في هذا؛ بأن يقلب اللفظ إلى ضده، ولو شاء الله لقال (قبل ذلك). وقال بعضهم، ويروى هذا عن مجاهد [وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ] أي مع ذلك، فجعل "بعد" بمعنى "مع"! ولكن الجواب عن هذا هو ما قاله حبر هذه الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: أن الخلق غير الدحو، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض أولاً، ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء فخلقها، وسواها، ثم بعد ذلك دحا الأرض<sup>(١)</sup>. فيكون سبحانه خلق الأرض في يومين كما أخبر في سورة فصلت، لكنه خلقها في يومين من غير دحو، ثم بعد ذلك استوى إلى السماء فخلقها وسواها كما أخبر، ثم دحا الأرض بعد ذلك. وبذلك يزول الإشكال.

[أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣١﴾]: وهذا يدل على أن معنى [دَحَاهَا] أي شقها، وبسطها، فكأن هذه العملية تمت بعد خلق السماء، وهو إخراج مائها؛ بأن جعلها تتفجر ينابيع، ويجرى فيها الماء من الأنهار. وأخرج هذه النباتات الهائلة، التي تملأ الغابات، والبساتين. والمرعى. اسم لمكان الكلاء والعشب، ومرجع الضمير إلى الأرض.

[وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾]: لما ذكر السماء، وذكر الأرض، ذكر الجبال. والله تعالى يقرن هذه المخلوقات العظيمة في غير ما موضع. فالله تعالى قال مثلاً: [إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ] {الأحزاب: ٧٢}، وقال: [أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾] {الغاشية: ١٧-٢٠} ومعنى [أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾] أي أثبتها، وقررها في

(١) تفسير الطبري (٩٢/٢٤).

الأرض؛ حتى لا تميد، ولا تضطرب، كما قال في آية أخرى **[أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ]** {النحل: ١٥} أي لئلا تميد بكم. والجبال في الحقيقة خلق عجيب؛ إذا رأى الإنسان الجبال الضخمة، الهائلة، الشاهقة، وقف متصاعراً أمام قدرة الله ﷻ، يرى هذا الخلق الهائل، العظيم، الذي يشق أجواز الفضاء بثقله، وصلابته، فيدرك ضآلة خلقه أمامه .

**[مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ٣٣]**: هذه هي الحكمة من المظاهر الكونية التي ذكرت. ومعنى **[مَنْعًا]** أي متعة، ومنفعة، وسخرة. فربنا، ﷻ، سخر لنا ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة، وباطنة. **[وَلِأَنْعَمِكُمْ]** والأنعام هي الإبل، والبقر، والغنم. وهذه الأصناف الثلاثة أكثر ما يلبس الناس؛ لعظيم منفعتها لهم؛ من حيث الركوب، والأكل، والحلب، ونحو ذلك، فالحاجة إليها ماسة. ولهذا تعلق بها أحكام الزكاة دون غيرها من المخلوقات والبهائم .

وهذه الآيات في الواقع تكشف لنا عن طريقة القرآن العظيمة، البديعة، في ذكر ملكوت السموات والأرض، وتوظيف ذلك في تقرير الإيمان بالله، ﷻ، وترتيبه لما بعده؛ فكما أن الله ﷻ ذكر تلك الآيات في سورة النبأ، ثم عقب عليها بذكر البعث، وما يحصل يوم القيامة، صنع سبحانه وتعالى ذلك في هذه السورة فقال: **[مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ٣٣] فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى**، انظر هذه النقلة! بعد أن ملء قلوبهم، وأبصارهم، بهذه الصور، والمعاني، صاروا الآن مهئين لإلقاء الحججة الثقيلة عليهم، الراحضة لإنكارهم البعث. إذاً هذا الخلق البديع، لم يخلقه الله عبثاً، ولن يذهب سدى، خلق السموات والأرض بالحق، وتمام الحق بالفصل الثاني الذي يقع بعد الطامة الكبرى، فإن أفعاله سبحانه كلها معللة بحكمة .

### الفوائد المستنبطة :

**الفائدة الأولى:** بيان دليل من دلائل البعث، والرد على المنكرين، وذلك في قوله تعالى: **[ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ ٤ بَنَّاها ٢٧]**، فإذا كان الله، سبحانه وتعالى، خلق السموات والأرض على عظمها، فمن باب أولى، وأحرى أن يعيد خلق الإنسان .

**الفائدة الثانية:** الاستدلال على الأخف بالأشد، وذلك في قوله تعالى: **[ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَّاها ٢٧]** .

**الفائدة الثالثة:** بديع خلق السموات والأرض .

**الفائدة الرابعة:** تسخير الله للمخلوقات؛ متاعاً لبني آدم، كما قال الله تعالى: **[مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ۗ]**.

**الفائدة الخامسة:** أن الأصل في الأشياء الإباحة والحل .